النزعة الوطنيّة في ديوان الشاعرة نجاة الماجد " الجرح إذا تنفس"دراسة موضوعية فنية

شاهر الكفاوين

حسن البكور

الملخص

يتناول البحث النزعة الوطنيّة، التي تبدو ظاهرة البروز في ديوان الشاعرة السعوديّة نجاة الماجد " الجرح إذا تنفس " ، والتي لم يتطرّق إليها الباحثون – من قبل – بدراسة علميّة جادة، فجاءت دراستنا للكشف عن فلسفة الشاعرة، في إدراك مفهوم الوطنيّة، وتمثّلها بتجلّيات شعريّة، عبر سياقات حقيقيّة ومجازيّة مبتكرة، تصرخ في عشق المكان (الوطن) بجملته أحياناً، ومدناً مجتزأة منه، لها خصوصيات في نفس الشاعرة أحياناً أخرى . وجاءت هذه الدراسة في مباحث ثلاثة : المبحث الأول : الوطن من مكونات هوية الشاعرة، والثاني: الوطن مآثر وثمرات، وأما الثالث فهو بعنوان : الوطن، بصمات والوفاء والبناء. أما المنهج الذي اعتمده الباحثان، فهو المنهج الوصفيّ التحليليّ، حيث تحليل النصوص الشعريّة، والوقوف على دلالاتها، وجمالياتها الفنيّة، وظواهرها الأسلوبيّة

الكلمات الدّالة : النزعة الوطنيّة، نجاة الماجد، المكان، الهويّة .

Abstract :

This study deals with the national tendency that appears prominently in the diwan oftheSaudi poet Najat Al-Majid " The Wound as It Breathes ", which the researchers have not previously tackled in a serious and scientific study. Our study came to reveal the poet's philosophy of understanding the concept of nationalism. She represents nationalism by poetic manifestations through real contexts and creative metaphor that yells in the love of the place (homeland) as a whole, and sometimes as certain cities that have special status to the poet. This study came in three topics; first: Homeland as a constituent of the poet's identity; second : Homeland as exploits and revenues; third: Homeland and the fingerprints of loyalty and construction. The researchers adopted the descriptive-analytical approach. The poetic texts were analyzed, and their significance, artistic aesthetics and stylistic phenomena were examined.

Keywords : National, Tendency, Najat Al-Majed, Homeland, Iclentity.

المبحث الأول : الوطن من مكونات هوية الشاعرة

يلحظ المتتبّع لديوان الشاعرة نجاة الماجد " الجرح إذا تنفس " اندماج الشاعرة، وانسجامها مع المكان المتشكّل عبر إطاريه الجغرافيّ والمشاعريّ، ومن هنا يغدو المكان ملوّناً بوجدان الشاعرة، ومسهماً في تحديد ملامح هويّتها ومكوّناتها الشخصيّة، كما " يصبح المكان جزءاً من الذاتيّة بعد أنْ يفقد صفاته الواقعيّة، ارتباطاً باللحظة النفسيّة " [1] .

ففي قصيدتها الموسومة بـ " أنثى السحاب " إشارات قويّة على طبيعة المحاور الحياتيّة التي تشغلها، وتستقطب جزءاً كبيراً من اهتماماتها. تفتتح الشاعرة قصيدتها بالشوق والحنين إلى ذلك المكان الرابض في جنوب المملكة العربيّة السعوديّة، وتحديداً منطقة الباحة، حيث غابات " رغدان " الجميلة، التي لا تنفكّ الشاعرة تبثّ مشاعر السعادة والحبور كلما لاح ذلك المكان في فضاء ذكرياتها، ولا أدلّ على ذلك من وصفها تلك المنطقة بالأوصاف الجميلة النابضة بالرقّة والحياة " ذات الجمال"فهي صاحبة الجمال، الذي لا يحاكيه جمال ولا يباهيه منظر، وانطلاقاً من عشق الشاعرة لذلك المكان ترحب بحلوله الدائم، ليس ضيفاً مؤقتاً، أو زائراً عابراً، فتلك حالة سرعان ما تتحوّل إلى وضع جديد قائم على الترحال، بل تريده مستوطناً مقيماً متمكّناً من كيانها، ضارباً بجذوره وممتداً في فكرها ووجدانها، تقول معبّرة عن هذه الرؤية :

أَشْـــجَيْتِ يـــا ذاتِ الجَمـــالِ كِيـــانِي وسَـــكَنْتِ فـــي خَلَـــدِي وفـــي وِجْـــدَاني[2]

ولعلّ الفعل " سكنتِ " يؤشّر على وجود الشاغر المهيأ في فكر الشاعرة ووجدانها؛ لاستقبال الوافد الحبيب " الباحة بمناظرها الجميلة ومواقعها الخلابة " ومن هنا غدت العلاقة بين الشاعرة والمكان " المدينة " قائمة على الإسقاطات النفسيّة، فعلاقة الإنسان بالمكان، وارتباطه به متجذرة منذ القدم، وهذا الارتباط العضويّ بالمكان، هو الذي يمنح الإنسان الإحساس بذاته وكيانه، وأنّه ينتمي إلى بقعة تأصّلت فيها هويته، وتعمّقت فيها جذوره [3] وتظهر هذه العلاقة لدى الشاعرة نجاة في صورة عشق وهيام :

تَيَّمتِنِـــــــي بهَـــــــواكِ واسْـــــــتَعْمَرتِنِي والغيـــثُ مـــن شَـــفَتيْكِ كـــمْ أَحْيِـــاني[4]

ولا يخفى أنّ الفعل تَيمتني ينفتح على دلالة الاستعباد والتذلّل، فلم يعد في قاموس الشاعرة المكانيّ والجغرافيّ غير " الباحة وغابات رغدان " ، ولا مجال لديها لمنافس آخر؛ لأنّ هذا الجزء الجميل من الوطن قد صادف قلباً خالياً فتمكّن، فالكيان مستعْمَر (واستعمرتني)، والشاعرة تتلذّذ بهذا الاستعمار تلذّذ المحبّ بصدّ المحبوب، وظلمه وسطوته حيناً، وبوصله ورقّته حيناً آخر. وتأكيداً لهذا المعنى، تركّز الشاعرة على فعل الإحياء، الذي يرتبط بذهن القارئ العربي بالغيث. وهي إذْ تستغل

هـذه العلاقـة الوجوديّـة بـين المطـر وإحيـاء الأرض، فإنّهـا تخصّـص الغيـث الـذي يبعـث فيهـا الحيويّـة والهمّـة، بأنّـه هـو مـا تفتـرّ عنـه شـفتا تلـك البقعـة الخلّابـة مـن الـوطن. وفـي لفـظ الشـفتين إيحـاءٌ بالحـبّ والعطف والاهتمام .

ويـزداد هـذا الارتبـاط العضـويّ والوجـدانيّ، بـين الشـاعرة والـوطن حينمـا تتقلّـب فـي مغانيـه وأعطافـه، يخلـب لبّهـا سـحر الطبيعـة؛ فتغـوص فـي تفاصـيل تلـك المشـاهد الرائقـة، مسـتجلبة خبراتهـا اللغويّـة وثقافتهـا الاجتماعيّة المحليّة، وبأسلوب التشخيص والأنسنة تقول :

وَهُنـــاكَ فـــي رَغـــدانَ طَـــابَ لِقَاؤُنـــا فـــي غَابـــةٍ مَبْسُـــوطَةِ الأركـــانِ

الفُـــلُّ والكـــادِي أنـــاخ بأَرْضِـــهَا فاسْـــتَقْبَلَتْهُ شَـــقائِقُ النُّعْمـــان

أُنْثـــى السَّـــحابِ إذا نواهـــا زائـــرٌ نَحَـــرتْ مُـــزُونَ الوابـــل الهَتَّـــانِ[5]

ونلاحـظ إلحـاح الثقافـة الوطنيّـة، بركائزهـا البدويّـة فـي تشـبيهات الشـاعرة وصـورها، فصـورة الجمـل فـي مناخـه، ومـا توحيـه مـن معـاني الثبـات والاسـتقرار والتجـذر، تسـقطها علـى أزهـار الفُـلِّ والكـادي الـذي اسـتوطن تلـك البقعـة، وأصـبح جـزءاً مـن مكوّناتهـا الدائمـة، وربمـا كـان البـون شاسـعاً بـين الأزهـار والجمـل، ولكـنّ مقصـد التشـبيه يجعـل ذلـك سـائغاً. واسـتكمالاً للصـورة، تضـيف الشـاعرة لونـاً آخـر مـن الـورود وهـو شـقائق النعمـان، وتجعلـه يبـدو فـي هيئـة المـزور المقـيم الـذي يسـتقبل الزائـرين ويرحـب بهـم، أمّـا صـورة الكـرم العربـيّ، المتمثّلـة بنحـر الإبـل إكرامـاً للضـيف فتُسْـقَطُ علـى الغابـات الرغدانيّـة، حيـث تسـتقبل زائرهـا بنحـر المـزن (الغـيم)؛ لينهـلَّ الوابـل والهتـان مـن المطـر، ابتهاجـاً وسـروراً بمقدمـه. ولعـلّ فـي ذلـك إشـارة إلـى أصـالة ذلـك المـوطن وخصـوبته، فـلا عجـب أنْ تفتخـر الشـاعرة بالالتصـاق بـه، وبنـاء خيمـة إقامتهـا فوق طوده الشامخ في تعبير يشي بالنشوة والسعادة :

فَنَصَـــبْتُ فـــوقَ الطّـــودِ خَيْمـــةَ شـــاعِرٍ يُملـــي الســـطورَ بِحُسْـــنِها الفتَّـــانِ [6]

وهـي بهـذا الإغـراق الشـديد فـي حـب وطنهـا، وتجلياتهـا الشـعريّة فـي التغنـي بمحاسـنه، لا تقبـل فـي ذلـك عـذلاً؛ لأنّهـا لا حيلـة لهـا فـي هـذا الانتمـاء الفطـريّ، الـذي يشـكّل الهويّـة التاريخيّـة والوطنيّـة والنفسـيّة، بل يمثل حلقة الوصل المشيميّة برحم الأرض. كما يقول تركي المغيض [7] .

وتوظّـف الشـاعرة حاسـة البصـر (العـين) كعنصـر فعـال فـي إدراك مشـهد الجمـال، وتذوّقـه، والإعجـاب بـه، وبـذلك تحقّـق وجودهـا وقيمتهـا. تقـول فـي توطئـة مشـوّقة لثـورة إعجابهـا وعشـقها لمدينـة أبهـا :

شَـــابَ اليـــراعُ وقلْبـــي بَعْـــدُ مـــا شَـــابَا والعـــينُ مـــا العـــينُ ؟ إن لـــم تُبْـــدِ إعجابـــا

يَـــا عَـــاذِلي كُـــفَّ عـــذلاً فـــالهَوى قَـــدَرٌ والعـــينُ تَطْـــرقُ مثـــلَ القلـــبِ أبوابـــا [8]

إنّ الشاعرة وهي في دهشة الإعجاب والبوح بما يسكنها من حبّ المكان الذي ملك عليها القلب والبصر، ترفع صوتها عالياً منكرةً على اللائم لومه (كُفَّ)؛ لأنّ هذا الحبّ هو قدرها المقدور، وهي ناظرة في هذا المعنى إلى بيت شوقي في نهج البردة :

يَـــا لائِمِـــي فـــي هَـــواهُ والهَـــوى قَـــدَرٌ لـــو شـــفَّكَ الوجـــدُ لـــم تَعْـــذِلْ ولـــم تَلُـــمِ [9]

ولعلنا نحس الموسيقا الداخلية التي أشاعها حرف الباء بتكرره في حشو البيتين، منسجماً مع رويهما، وذلك يتناسب بل ينسجم مع الفكرة الجوهرية المتمثلة بحب الوطن، والذي يظهر من خلال حركة القلب العاشق، والعين المعجبة. وذلك أن حرف الباء حرف انفجاري، يظهر عند فتح الشفتين لإخراج الهواء المحتبس جراء إطباقهما، والشاعرة تود أن تفجر تلك المكبوتات النفسية، في تمرد واضح على عذل العذال، الذين يسببون لها الضيق والمعاناة، وتكرار هذا الحرف الانفجاري يبعث في نفسها شيئاً من الارتياح [10] كما أنه ليس من قبيل المصادفة، أن يتكرر حرف العين ثماني مرات في هذين البيتين، ليناسب موقف القوة والرفض الذي تقفه الشاعرة حيال اللائمين، لكون حرف العين من حروف الجهر، التي تتصف بالقوة والشدة. وهذا يشير بوضوح إلى انتقاء الشاعرة ألفاظها بدقة، لتعبر عن المعنى المراد ضمن إيقاع موسيقى متناغم، وفي ذلك يتفاوت الشعراء، لأن هذا النغم الصوتي هو تعبير عن طريقة الإحساس الفردية [11] .

وبعد هذه التوطئة لثورة الإعجاب بمدينة أبها، تسكب الشاعرة مشاعرها الفياضة حباً وإعجاباً، فتقول :

أَبْهـــا البهيَّـــةُ زانَ الـــورِدُ جَبْهَتَهـــا وتَرْتَـــدي مـــن بَـــديع الحُسْـــنِ جِلْبَابَـــا

تَاهـــتْ خُيـــولُ عُيـــوني عِنْـــدَ رؤيَتِهـــا فَقُمْـــتُ أَغْـــرِسُ أوتـــاداً وأطنابَـــا [12]

تقف الشاعرة هنا موقف المندهش المحاصر بالجمال الطبيعي، الذي يدب إلى النفس دون استئذان، وتقفز إلى خاطرها صورة العروس المجلوَّة، في تشخيص بارز لصورة المدينة (أبها) التي جُللت بالبهاء وجلببها الحسن بجلباب أخضر ضافٍ، كما توجها بعقد زاهٍ من الورد يعلو جبهتها.

أمام هذا المشهد المفعم بالجمال، يزيغ البصر جراء اضطراب حركة العين السريعة، في الاتجاهات المختلفة، كما آلة التصوير التي تدور بسرعة في أطراف المكان، تحاول استقصاء المنظر وإبراز دقائقه. ولا ريب أن الشاعرة أفلحت في تفجير طاقات اللغة، باستعمالها التعبير المجازي المكثف " خيول عيوني " الذي يبث في وجدان المتلقي جملة من المعاني الجزئية للسرعة المتلاحقة، والتحفز والاتساع وغيرها ذلك، مما وقر في الذاكرة العربية من صفات الخيل وأحوالها. ونتيجة لهذا

الإحساس الآسر بالجمال والحب، تأتي الإقامة الملازمة، فتعبر عن ذلك بالتعبير الموحي " فقمت أغرس أوتاداً وأطنابا " والغرس يعني الرسوخ والثبات لتلك الأوتاد والأطناب، التي ترمز إلى بيت الشَّعْرِ، والمسكن الأول لأهل تلك الربوع والديار، وهو من تراث الشاعرة الوطني الذي تحن إليه وتهواه .

ولم يعد المكان في نظر الشاعرة، صورة حسية لجمال الشكل، بل تحول من طبيعته الجغرافية إلى حاضن للذكريات ومختزن لها :

وذَاعَ في كل كلِّ شَطْرٍ عِطْرُ زَهْرتِها عِطرٌ ينَاجي مَعَ الوِجْدانِ أَلْبَابَا

لو خَيَّرتنِي خُيولي قبلَ وُجْهَتِهَا لاخترتُ أَبَها وأَبْدى القلّبُ أَسْبَابَا[13]

إن وصف المكان – بكل تجلياته – لم يعد منفصلاً عن روح الشاعرة؛ بل هو ممتزج بوجدانها ومشاعرها، وهذا ما توحي به كلمة (يناجي) التي تحمل دلالة الامتزاج والتماهي، إضافة إلى التشخيص الذي يبدو فيه عطر زهر المدينة في حالة من البوح العاطفي، يبث حديثاً من القلب إلى القلب، هذا الحديث العاطر، وهذه الحالة الحميمية شكَّلا لدى الشاعرة مبعثاً على السعادة بحسن الاختيار، والتوجه إلى المكان الرائع " أبها " .

وتتجسد تلك الرحلة والانطلاقة من خلال توظيف كلمة (خيولي) التي تتكرر في مواطن كثيرة من ديوان الشاعرة [14] تلك الكلمة التي غدت رمزاً يحمل دلالات مكثفة للعزم والسير والانتقال السريع، إضافة إلى استغلال ارتباط الخيل بالخير، الأمر الذي يُستكمل به مشهد الفرح والدهشة، والعشق الذي أصبح عند الشاعرة عشقاً فطرياً بالنسبة لمدينة أبها:

عَشِقْتُها عِشْقَ مَوْلُودٍ لأُسْرَتِهِ حَتَى خَلعتُ لها بالحُبِّ أَلْقَابَا [15]

إن الوطن هو الأسرة الكبيرة التي ينمو حبه، وعشقه في قلب الشاعرة، ويتعاظم بدافع نفسي وعضوي، دون إعداد، وتكلف وتخطيط، كما يحب الصبي والديه وإخوته حباً ينمو مع الأيام، بطريقة تلقائية مركوزة في فطرته، ولهذا فهي تخلع على تلك المدينة من الألقاب الجميلة، فعل الأهل بالطفل المدلل، أو فعل المحب بالمحبوب... " أبها البهية ... أبها العسيرية الفيحاء ... أبها الهوى ... " ومما يعمق تلك العلاقة العضوية بين الشاعرة ومدينتها ، أنها (أي أبها) مصدر الإلهام ومحراب الإبداع، وصقال القرائح المتعبة :

يَصْبُوا إليها مِدادِي قبلَ راحِلَتي ولَمْ تَزَلْ لِذَوي الإبْداعِ مِحْرابَا

تَأْتي إليها القوافي وهي مُتْعَبةٌ وتَسْتَقي من لَذِيْذِ الشَّهْدِ أكْوَابَا [16]

وتتكرر فكرة الوطن الملهِم كثيراً في ديوان الشاعرة كقولها :

يـــا ســـيّد القلْـــب يـــا بـــذْراً أَهـــيمُ بِـــهِ يَـــا مَـــنْ إلـــى جَنَّـــةِ الأَشْـــعَارِ يَنْقُلُنِـــي [17]

وقولها – أيضاً – :

إنّـــــي لآتيـــــك بالأَشْـــــعَارِ مُلْهَمـــــةً يـــا مـــوطنَ العِـــزِّ والأَمْجـــاد تُطْرِبُنـــي [18]

أو قولها :

هُـــوَ مَصْـــدَرُ الإلهـــامِ كـــمْ مـــن مُبْـــدِعٍ مِنْـــهُ اسْـــتَقَى هـــو فِتْنَـــةُ الشُّـــعَراءِ [19]

وتبحـر الشـاعرة نجـاة الماجـد ضـمن رحلـة العشـق المتجـدد لمفاصـل وطنهـا الكبيـر، ليسـتقر زورقهـا على شاطئ عروس البحر " مدينة جدة " ؛ ليتحقق لقاء المشوق الملهوف بالحبيب :

وَيجـــوبُ المـــوْجَ مركـــبُ لَهْفَتـــي حَـــاملاً للبحـــرِ أَزْهـــارَ النَّـــدى [20]

يشكل البحـر فـي هـذا المشـهد عنصـراً رئيسـاً، تُخْتَـزنُ فيـه الـذكريات والأمـاني وتتمحـور حولـه عواطـف الشاعرة؛ فتغرق في مناجاته برقة ولطف، ساهرة الطرف، في جنح ليل يزيد الصورة جمالاً وجلالاً :

يـــا عَـــروْسَ البحـــرِ طَرْفـــي سَـــاهرٌ يَرْقُـــبُ اللَّيـــلَ وبَحْـــراً مُزْبِـــدا

يَجْمَـــعُ الأَصْـــدافَ مـــن أَحْشَـــائِهِ ويَصُـــوغُ مـــن الأَمَـــاني عَسْـــجَدا [21]

ومـن جانـب آخـر، فـإن مدينـة جـدة تشـكل مثيـراً وجـدانياً، وإبـداعياً لـدى الشـاعرة، فهـي توقـد جـذوة الإحسـاس بالحـب والأمـل، وتـدفع إلـى معانقـة الحيـاة، والعـزف علـى قيثارتهـا المترنمـة، بقلـب منشـرح مفعـم بالسعادة، يرتل الأناشيد في محراب تلك المدينة الساحرة :

وأَنَـــا المفْتُـــونُ فـــي حُـــبِّ التـــي أَيْقَظَـــتْ عِنْـــدي شُـــعُوراً خامِـــدا

فـــارْتَوى شَـــوْقي وَغَنّـــى خَـــافِقي بعـــد أَنْ كـــان سَـــقِيْماً مُجْهَـــدا

آهِ مـــن سِـــحْرٍ لجـــدّةَ سَـــاقَنِي كـــي أكـــونَ لهـــا وعَنْهـــا مُنْشِـــدا [22]

لـم يعـد الـوطن فـي قـاموس الشـاعرة مجـرد منظـر رائـق، يـبهج العـين، وتلـذه الـنفس، ويبعـث السـرور، كمـا لـم يعـد مكانـاً للاسـتجمام والتنـزه، تنتجـع الشـاعرة منـه بقاعـاً ذات طبيعـة خلابـة، تعيـد – فـي أحضـانها – توازنهـا النفسـي والعـاطفي، بـل غـدا قبلـة يـأرز إليهـا هواهـا، ومحرابـاً تسـجد فيـه أشـعارها، جـلالاً وهيبـة، فتقول :

يَـــا قِبْلـــةَ الحُـــبِّ يـــا مِحـــرابَ قَـــافِيَتي رَتّلـــتُ حُبّـــكَ فـــي صَـــحْوي وفـــي وَسَـــنِي [23]

أنـــتَ الـــذي كلّمـــا أَشْـــتَاقُ أَنْظمَـــهُ يـــا مَوْطِنـــاً حَيْثُمـــا غَـــادَرْتُ يَسْـــكُنُنِي

ولا يخفى المصدر الديني للاستعارات التي بنت عليها الشاعرة صورها، والتي اشتملت على الألفاظ القرآنية (قبلة، محراب، رتلت ...)، وهذه الكلمات ذات دلالات ممتدة، توحي بالقداسة والتعظيم. فالقبلة عند المسلمين، هي علم على قبلة المصلي، وهي أشرف جهات الأرض، والمحراب هو مكان الخشوع والإخبات، والترتيل إنما هو قراءة القرآن بإحكام، وهذه الثلاثة تمتزج وتتداخل ... فالترتيل يكون في المحراب، والمحراب لا يكون إلا في القبلة، والشاعرة وظفت هذه الألفاظ في سياق مجازي أوضح امتزاج حب الشاعرة لوطنها بحالة اللاوعي لديها، فجاء تعبيرها صادقاً، لا لبس فيه ولا مواربة، ويجسد تباريح الوجد المكلل بالكبرياء .

ومن جهة أخرى، فإن الوطن بأمجاده المرتكزة في ذاكرة الشاعرة، يمثل الغذاء الروحي الدائم، والبلسم الذي ينعش كيانها، ويشعرها بالعزة والكرامة في مسيرتها الحياتية، فلا غرو والحالة هذه أن يتغلل حبه في سويداء قلبها :

أَمْضـــي وحُبـــكَ يَسْـــقي الـــرّوح مَفْخـــرَةً لأنّ مَجْـــــدك مِثْـــــلُ الوَابـــــلِ الهَـــــتِنِ[24]

وفي إبرازها لأمجاد الوطن، ودوام تأثيرها الروحي فيها، ترسم صورة جميلة، يمتزج فيها المعنوي بالحسي؛ فيتجسد (المجد)، ويتأكد دوره الحيوي المتنامي والمتواصل، حينما يُشبّه بالمطر الغزير المتتابع، ولا يخفى ما في هذا التركيب، والوصف من التكثيف (الوابل الهتن) والمطر هو أصل الحياة، ومصدر الخصب والنماء، وغيابه عن الأرض يعني البؤس والجفاف، والجدب الروحي للناس، وكذلك الوطن بالنسبة للشاعرة نجاة لو غاب عنها، أو غفلت عنه أظلمت الحياة في عينيها، واجتاحتها الهواجس النفسية، والأوهام المحزنة، فالوطن عندها هو مصدر الضياء، والنور الذي يطرد الظلام، وما فيه من الأشباح والتخيلات، وتختصر الشاعرة كل هذه المعاني والمشاعر بقولها " عيناي " حينما تقول :

عَيْنـــايَ لـــو غِبْـــتَ عـــن عَيْنَـــيَّ ثانيـــةً يَجْتَـــاحُني اللَّيـــلُ بالأَوْهـــامِ والحَـــزَنِ [25]

وتستمر الشاعرة في التلذذ، وهي تستجلي أمجاد هذا الوطن، التي حُفرت في ذاكرة الزمن فتشير إلى أن تلك الأمجاد هي منبع إلهامها الشعري التي تهتز له طرباً :

إنّـــي لآتيـــكَ بالأَشْـــعارِ مُلْهَمَـــةً يـــا مَـــوْطِنَ العِـــزِّ والأَمجـــادُ تُطْرِبُنـــي [26]

هـذا الطـرب والسـرور، يحمـل الشـاعرة علـى دوام الاشـتغال بمناجـاة وطنهـا، مناجـاة الحبيـب للحبيـب، ثم تتحول تلك المناجاة مع الأيام إلى زادٍ لذيذٍ تستمتع به الشاعرة وتستطيب :

صَـــيَّرتُ نَجْـــواك زاداً أَسْـــتَلِذُّ بـــه فمـــا سِـــوَاكَ بِـــزَادِ الحـــبِّ يغمرنـــي [27]

ولا شـك أن عنصـر التشـخيص الـذي أُضـفيَ علـى الـوطن، مـنح المشـهد عمقـاً، وحركـة وظـلالاً يحسـها المتلقـي ويتملاهـا، كمـا أن تكـرار ضـمير الخطـاب العائـد علـى الـوطن مثـل (أنـت عينـايَ ، غبـتَ، حُبـكَ، سـواك، مجـدك ...) هـذا التكـرار يؤشـر علـى الإحسـاس المسـيطر علـى الشـاعرة بـأن منزلـة الـوطن لا تـدانيها منزلـة، والتكـرار " يضـع بـين أيـدينا مفتاحـاً للفكـرة المتسـلطة علـى الشـاعر، وهـو بـذلك أحـد الأضـواء اللاشـعورية التـي يسـلطها الشـعر علـى أعمـاق الشـاعر، فيضـيئها بحيـث نطّلـعُ عليهـا " [28]

.المبحث الثاني : الوطن ، مآثر وثمرات

لعـل مـا يشـدّ انتبـاه القـارئ لـديوان الشـاعرة نجـاة الماجـد، الموسـوم بـ " الجـرح إذا تـنفس " تلـك الأفكـار العميقـة، والـدلالات الهادفـة، التـي جـاءت مـن خـلال الصـور الفنيـة المسـتمدة مـن القـرآن الكـريم، والتـراث الأدبـي، والبيئـة المعاصـرة . كمـا أن الشـاعرة نجـاة تمتلـك مخزونـاً لغويـاً واسـعاً أَهّلهـا للتعبيـر عـن مكنوناتهـا الفكريـة بلوحـات فنيـة بديعـة، ومشـاهد حيّـة ناطقـة تجسـدت بـالتلوين فـي صـورها الشـعرية البصـرية، والسـمعيّة، والشـميّة، والذوقيـة، واللمسـية، وكـل مـن يقـرأ ديـوان الشـاعرة يلمـس تلـك الأريحيـة والتفاعـل البنّـاء مـن خـلال الثنائيـات الضـدية التـي تكشـف عـن مواضـع الطمـوح والأمـل، والتغنّـي بالأمجـاد، والطبيعـة . ولعـلّ مـا يميـز صـور الشـاعرة تلـك الترنيمـة الجميلـة التـي يصـدح بهـا الـديوان، وهـي معزوفـة المكـان (الـوطن) الـذي سـيطر علـى كثيـر مـن الصـور الفنيـة، الـوطن المعطـاء، والنبـع الثـر الذي غمر أبناءه بالخيرات، وهذا ما تمثلته الشاعرة في قصيدتها ليالي الجوف والزيتون :

هُنَـــاكَ فـــي الجـــوفِ والأَشْـــواقُ إعْصَـــارُ ودوحَـــــةُ الحـــــبِّ والزَّيتـــــونُ لـــــي دارُ

هُنَـــاكَ فـــي الجـــوفِ والزَّيتـــونُ يُلْجِمُنـــي عـــن البَيَـــانِ وكَـــمْ فـــي القَلْـــبِ أَخْبَـــارُ [29]

تفتـتح الشـاعرة قصـيدتها بظـرف المكـان " هنـاك " الـذي تكـرر عشـر مـرات، مرتبطـاً ارتباطـاً عضـوياً بـالجوف، المنطقـة التـي نالـت إعجـاب الشـاعرة بمـا تمتلكـه مـن خيـرات وفيـرة، حباهـا الله – عـز وجـل – ففيها الزيتون المبارك، والروائح العطرية، التي تفوح من المزارع الجميلة الرابضة في السهول والتلال .

إن تكـرار عبـارة " هنـاك فـي الجـوف " ينقـل القـارئ إلـى الجـو الـذي كانـت تعيشـه الشـاعرة وسـط نعـيم الزيتـون، والـذي أسـر فؤادهـا، وأثـار أشـواقها، تلـك الأشـواق المتجـددة بشـكل عنيـف كالإعصـار، كلمـا هاجـت الـذكرى، وانطلقـت التنهيـدة (هنـاك) التـي يرتفـع معهـا الصـوت والحركـة الإشـارية، ولا غـرو فقـد غـدا الزيتـون داراً ضـمن دوحـة الحـب، والـدّار ترمـز إلـى كـل مـا يبعـث فـي الـنفس الطمأنينـة والراحـة

والاستقرار ولا يخفى ما أحدثه التكرار المشار إليه، وما بعده من الجمل الحالية من التوازي الصوتي، الذي يعطي إيقاعاً داخلياً يحقق إنسجاماً موسيقياً خاصاً .

وفي الحالة النفسية المبتهجة التي تسيطر على الشاعرة إلى حد الإندهاش، يأتي استخدامها للفعل " يلجمني " الذي يحمل معنى المنع والقهر، إذْ يُستخدم – في العادة– لشكم جماح الخيل، ومنع فطيم الأنعام من الرضاع، وهو – أي الفعل – مستمد من قاموس بيئة الشاعرة، على امتداد مساحة وطنها الواسع، واستطاعت توظيفه ضمن سياق تصويري أبرز جمال الزيتون، المكتسي بمسحة القداسة، وافتتانها بمناظره، وعظيم منافعه، وبخاصة أنه لا يزرع إلا في مناطق قليلة ومحددة من المملكة العربية السعودية، كالجوف مثلاً. فاهتز كيانها، واضطرب وجدانها، وعُقد لسانها، ولم تعد قادرة على وصف ذلك المشهد، مع امتلاكها الفصاحة والبيان. كما إن قلبها أصبح فارغاً من كل الأخبار، والخبرات التي كان ينطوي عليها، وغدا مخبتاً في مغاني جنة الزيتون. وفي هذا الجو الاحتفالي، يتوسع إحساس الشاعرة بالسعادة وهي ترى في ثمار الزيتون، معادلاً موضوعياً لإثمار آمالها بمستقبل زاهر، ربما يشمل الوطن كله فتزغرد له الروح، وتنطلق الأشعار ترنيمة حب تخلد الحدث. وقد تجلت مهارة الشاعرة في استخدامها كلمة معبرة عن هذا المعنى، من قاموسها الوطني، وهي كلمة " الخيل " التي تكتنز بدلالات موروثة، كالسرعة في العدو والسبق إلى الغاية، والزهو ... وأسقطت هذه الدلالات على أشعارها من باب إثارة خيال المتلقي؛ لاستجلاء آفاق النص :

هَنَاكَ في الجوفِ والآمَالُ مُثْمِرةٌ وقَدْ شَدَتْ فَوقَ أيكِ الرُّوحِ أَطْيارُ

هَنَاكَ أَطْلَقْتُ خيلَ الحُبِّ قَافيةً مِيْقَاتُها الجوفُ كمْ في الجوْفِ آثارُ [30]

ثم تنقلنا الشاعرة إلى مشهد يتطور فيه شغفها بالزيتون إلى حب وغرام حسي متبادل قد يلقي ضوءاً على نفسية الشاعرة العاشقة، وما الزيتون إلا قناع للمحبوب الغائب أو المنتظر ، تقول :

هَنَاكَ في الجوفِ والزيتونُ يُطربني كأنّما أنا والزيتونُ سُمَّارُ

فَسَاعةٌ مِنْهُ أَدنو كي أُحَادِثَهُ وسَاعةٌ يلتَوي بي غُصْنُهُ البَارُ

يَصُدُّ عَنْي سِهامَ الشَمْسِ يَحْمِلُنِي بَينَ الظِّلالِ فَلا بَرْدٌ ولا نَارُ

خَيامُ أَفْيائِهِ في القلب قد نُصِبَتْ ما كانَ بَيْنِي وبينَ الوُدِّ سِمْسَارُ [31]

وتصور لنا الشاعرة أحداث مغامراتها عبر الأسلوب السردي، فهي السارد الحاضر عن طريق ضمائر المتكلم، التي تتردد في الأبيات " الياء في يطربني، بي، عني، يحملني، رآني ... والضمير

أنا " فهي تتخذ من الزيتون سميراً خاصاً يطربها، وتجاذبه أطراف أحاديث الهوى، وفي قولها " أدنو " ما لا يخفى من رقة الانتقال، والأنس بالقرب، وما يتبع ذلك من البوح بالمكتوم، حيث ينتشي غصن الزيتون، فيحتضنها في ود ودفء، ويصد عنها سهام الشمس الحارقة، ويهيئ لها المكان الضليل في أفياء قلبه ... إن هذه الصور الجميلة المتداخلة والمتعاقبة، والتي قوامها التشخيص والتجسيم ... ما هي إلا استبطان داخلي لما يجري في عالم الشعور والأفكار والأحاسيس لدى الشاعرة؛ فتبرز – بوضوح – عاطفة الأنثى الصادقة، في حاجتها إلى الحب والعطف، وما يقوي ضعفها المتأصل في جبلتها .

وتواصل الشاعرة سردها للمشهد الحالم بينها وبين الزيتون، فتصور احتفاء زيتون الجوف بها؛ باستدعاء صورة الاحتفاء بالضيف، المتوارثة عبر التاريخ الوطني، والقومي للشاعرة ، فيأتي لفظ (النحر) الذي يمثل ذروة الكرم، حيث ينحر العربي (البدوي) إبله؛ ليكرم ضيفه مسروراً بفعله، مع أن تلك الإبل هي كل ما يملك من مال ومتاع، وقد جاء انزياح لفظ النحر إلى الزيتون، جميلاً موفقاً، لمناسبة الجو العام للقصيدة، ولتسلسل أحداثها... الابتسام فالترحيب ثم النحر :

كَأَنّـــــه إذْ رَآنـــــي قـــــالَ مُبْتَسِـــــماً أَهْـــلاً وسَـــهْلاً بمـــن سُـــرّتْ بهـــا الـــدَّارُ

وَهَـــبَّ يَنْحـــرُ زَيْتونـــاً ويَعْصُـــرُه وَينْشـــر العِطْـــرَ تَرْحيبـــاً بِمَـــنْ زاروا

هَنَـــاكَ آنَسْـــتُ خَيْـــراً فالْتَحَفْـــتُ بـــهِ كمـــا تَلَحَّـــفُ بـــالأوْراقِ أَثْمـــارُ [32]

وإزاء هذا الإكرام، والسرور بالحبيب الزائر، والمبالغة في إيناسه، تجيش عاطفة الشاعرة ويقدح زناد قريحتها، فتنهمر الأشعار عليها، وتنثال المعاني، وكيف لا ؟ وقد عشقت عيناها أقمار الزيتون المتجلية :

هُنَـــاكَ طَابَـــتْ ليـــالي الشِّـــعْرِ وانْـــهَمَرتْ مِنِّـــي القَـــوَافي وَنْهـــرُ البَـــوْحِ مِـــدْرَارُ

هُنَـــاكَ مَـــادَتْ غُصـــونُ الـــرُّوح فـــي خَجَـــلٍ وَقَـــدْ تَجلَّـــتْ مِـــنَ الزَّيتـــونِ أَقْمَـــارُ

هُنَـــاكَ لا تَعْـــذِلوا عَيْنَـــيَّ إنْ عَشِـــقَتْ فَـــالعينُ قَلْـــبٌ لهـــا الأَهْـــدابُ أَسْـــوارُ [33]

وحينما ترى الشاعرة أن شجرة الزيتون تجمع من الفضائل والمميزات، ما يفوق قدرتها على الإحاطة بها، أطلقت عليها وصفاً جامعاً لأشتات المحاسن وهو " الخير " فتقول :

هَنَـــاكَ لا تَسْـــأَلوني مـــا رأَيـــتُ فَقَـــدْ رَأيـــتُ خَيـــراً ومَـــنْ فـــي الخَيْـــرِ يَحتـــارُ [34]

ثم تضرب الشاعرة على وتر ديني يرفع مقام تلك الشجرة، حينما تشير إلى ذكرها الحسن في القرآن الكريم، والحديث الشريف :

رَأَيتُ ماذا رأيتُ الحُسْنَ مُعْجِزَةً زَيْتونةً زانَها فَضْلٌ وأَنْوارُ

رَأَيْتُها فَوقَ رَمْلِ الجَوفِ سَاجِدَةً حَديثُها العَذْبُ آياتٌ وأذكارُ

رَأَيْتُها وهي تَرْوي عَنْ مَكارِمِهَا وسَائِرُ الدّوحِ والأَشْجارِ قَدْ غَارَوا

تِلْكَ المبَارَكةُ الخَضْراءُ زَاخِرةٌ بِكُلِّ خَيْرٍ وَكَمْ في الزَّيْتِ أسْرارُ

سُبحانَهُ اللهُ في القرآنِ خَلّدَهَا كما اصْطَفَاها بِذِكْرِ الفَضْلِ مُخْتَارُ [35]

فالزيتونة جمعت إلى حسن المنظر وجماله، قدسية النور الذي تكمن أسراره في زيتها ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[36]، كما أنها (الزيتونة) تبدو في صورة الساجد فوق تلك الرمال، الذي لا ينفك عن التلاوة ، وذكر الله – تعالى –، فهي إذن مسكونة بالبركة التي أودعها الله فيها حينما ذكرها بقوله : ﴿ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾[37] هذا التميز أوجد حالة من الغيرة عند سائر الأشجار التي لم تنل تلك المنزلة، بحسب إسقاطات الحالة النفسية للشاعرة. إن الصور الحسية الجميلة التي ترسمها الشاعرة، وتنفخ فيها من روحها وعاطفتها، تأتي نابضة بالحياة تكشف مدى التصاقها بوطنها (الجوف)، وإعجابها وتقديرها لخيراته التي تجمع بين المتعة والفائدة، وهو – أيضاً – مصدر الإلهام والإبداع لديها؛ فراحت تصدح بأناشيد المجد للزيتون، وتغني للروابي والزهور والأنهار :

حُوريَّةُ الجَوْفِ للإبداعِ مُلْهِمةٌ يَؤُمُّها مِن بُحورِ الفَنِّ أَشْعارُ

لمّا أَنَاخَتْ خُيولي في مواطِنِها تَفَتّحَتْ في حُقولِ الرُّوْحِ أَزْهارُ

فَقَدّمَ القَلْبُ للزيتونِ أُغْنِيَةً وغَرّدَتْ في سَماءِ الجَوْفِ أَطْيَارُ

وحَرَّضَتْني لِنَظْمِ الحُسْنِ رابيَةٌ فيها زُهورٌ وزيتونٌ وأَنْهارُ [38]

وتختتم الشاعرة قصيدتها بالتوجّه إلى الله شكراً وعرفاناً، أن حباها هذا المكان الجميل، بطبيعته الخلابة، التي تشحن طاقتها الإبداعية، ولا سيما شجرة الزيتون المباركة. وتأتي صورة الشكر من خلال سجود النفس والروح للرحمن، بعد أن اكتحلت العين ببديع الجمال :

فَخَـــــرَّتْ الـــــرُّوْحُ للـــــرّحمن راكِعـــــةً وكُحِّلَـــتْ مـــن بـــديعِ الجـــوفِ أَبْصَـــارُ [39]

ومـن مـآثر الـوطن الجليلـة التـي تفـاخر بهـا الشـاعرة نجـاة الماجـد – وحـق لهـا ذلـك – أن انبثـاق الرسـالة المحمديـة، كـان مـن قلبـه وأعـز بقاعـه (مكـة المكرمـة)؛ وبـذلك يكتسـي هـذا الـوطن حلـة مـن القداسـة والتقـدير، ويـدين لـه بالفضـل كـل المسـلمين، تلـك كرامـة ومحبـة جعلهـا الله فـي القلـوب منـذ القـدم اسـتجابة لـدعاء إبـراهيم – عليـه السـلام – ﴿ رَبَّنـا إنّـي أَسْـكَنتُ مـن ذُرّيتـي بِـوَادٍ غيْـرِ ذي زَرْعٍ عِنْـدَ بيْتِـكَ المحرّم رَبّنا ليُقيموا الصّلاة فاجْعَلْ أَفئِدةً من النَّاس تهوي إليهم ﴾[40] .

تقول :

وبمَـــــوْطني أمُّ القُـــــرَى أرضُ الهُـــــدَى حيـــــثُ انْـــــبلاجُ النّـــــورِ فـــــي الأَرْجـــــاءِ

وَطَـــــنٌ وكُـــــلُّ المُسْـــــلِمين تُجِلُّـــــهُ فـــــي العَقْـــــلِ مَسْـــــكَنُهُ وفـــــي الأَحشـــــاءِ [41]

ومـن خـلال مسـيرة الـدين الإسـلامي، وانتشـار مبادئـه السـمحة، الداعيـة إلـى السـلام والمحبـة، ونبـذ التمـايز والبغضـاء، تشـكل للأمـة الإسـلامية سـجل حافـل بالأمجـاد، وكـان وطـن الشـاعرة وعـاءه الـذي ينضـح بـالعزة والإباء :

يـــا سَـــائِلاً عـــن مَـــوْطني وإبَـــائي وَطَنـــي يُطَـــاوِلُ قِمَّـــةَ الجَـــوْزَاءِ

لـــو تَقْـــرأ الأَمْجَـــادَ يَبْـــدو مَـــوْطِني مَوْسُـــوْعةً لِلمَجْـــدِ والعَلْيَـــاءِ

ولَـــهُ يَـــؤُولُ الـــدِّينُ دِيـــنُ مُحمَّـــدٍ خَيْـــرِ العِبـــادِ وسَـــيِّد الشُّـــفَعَاءِ

دِيـــنُ السَّـــلامِ الحَـــقُّ لـــيْسَ تَمـــايزٌ فيـــهِ ولا يُفْضـــي إلـــى البَغْضَـــاءِ [42]

ثـم تشـير الشـاعرة إلـى أن وطنهـا (المملكـة السـعودية) يحتضـن دولـة قامـت علـى ذلـك الـنهج القـويم، وعلى تلك المبادئ التي رسخها الإسلام :

وَبِمَـــــوْطني للـــــدِّين قَامَـــــتْ دَوْلـــــةٌ وعلـــــى شَـــــرِيْعةِ رَبّهـــــا السَّـــــمْحَاءِ

وَطَـــــنٌ تَسَـــــامى عـــــن سِـــــواهُ فَضْـــــلُهُ وَمَقامُـــــهُ فـــــي ليلـــــةِ الإســـــراءِ [43]

ولا تخفـى العاطفـة الدينيـة القويـة التـي تشـف عنهـا الأبيـات، وأسـلوب الاحتجـاج، والتـدليل الدامغالـذي تسـلكه الشـاعرة فـي تفضـيل موطنهـا علـى سـائر البلـدان؛ لكونـه يحكـم بالشـريعة الربانيـة السـمحاء التـي تسـعد النـاس، ويتيـه بـذلك ويفخـر، ففضـله كفضـل ليلـة الإسـراء علـى سـائر الليـالي. كمـا تكثـر فـي الأبيـات

الإشارات التاريخية والدينية، التي توجز وتكثف أحداثاً وسيراً يطول سردها (انبلاج النور)، (في العقل مسكنه وفي الأحشاء)، (دين السلام الحق ليس تمايز فيه) ثم تخصص الشاعرة جانباً هاماً من جوانب الدين الإسلامي وفرائضه، يرتبط مكانياً بموطنها، وهو الحج إلى بيت الله الحرام. ذلك المؤتمر العالمي الذي يجسد وحدة المسلمين، ويؤكد أخوتهم، فترفع صوتها مرحبة بضيوف الله، فهي صاحبة البيت :

أَهْلاً ضُيوفَ الله في البَيْتِ الذي ... جَلّتْ مكانَتُهُ بخير مُقَامِ

والخَيّرُ في البَطْحَاءِ قَد أَضْحَى بها ... نُوْرَاً على نُوْرٍ على إنْعَامِ

واليومَ ضيفُ اللهِ يَمّمَ نَحْوها ... لبّى نِداءَ الوَاحِدِ العَلاّمِ

وتَعانَقَ القَاصِي مع الدَّاني بها ... وعلى الوُجُوه بَشَاشَةٌ بوِئَامِ

الحُبُّ يَسْكُنُ في الجَوَانح هَانِئاً ... كالنَّهرِ جُدِّدَ مَاؤُهُ بِغمامِ

صُوَرُ التَّلاحُمِ قَدْ تَبَدتْ هَا هُنَا ... وَقَفَتْ لها الدّنيَا على الأَقْدَامِ [44]

ولعل أبرز ما يميز أسلوب الشاعرة في هذه الأبيات، البساطة في الألفاظ والمعاني، مع بعض التشبيهات الجميلة والمبتكرة، كقولها " كالنهر جدد ماؤه بغمام " حيث الحيوية في التعبير عن ديمومة الحب، وتجدده بين تلك الوفود بفضل ذلك اللقاء، بذلك الموقف. كما جاءت الصورة جميلة ومعبرة عن مشهد التلاحم في البيت الأخير " وقفتْ لها الدنيا على الأقدام " فهنا يُفتح للمتلقي فضاء واسع من التأمل والإعجاب بالهيبة السامقة، التي جعلت الدنيا بأسرها تقف إجلالاً لها واحتراماً .

وبعد، فإن هذا المبحث يوقفنا على قدرة الشاعرة على الجمع بين مآثر الوطن الدنيوية، كالخيرات التي يتمتع بها أبناؤه، والفضائل الدينية التي جعلت منه قبلة للمسلمين في كافة أصقاع الأرض، فهو مهد الوحي، وموئل أداء بعض فرائض الله، والشاعرة بذلك تتجاوز مشاعرها الذاتية، وعواطفها الخاصة، فتنطق بلسان الأمة الإسلامية التي تهفو قلوبها إلى تلك الديار .

المبحث الثالث : الوطن، وبصمات الوفاء والبناء

تتناول الشاعرة نجاة الماجد في نزعتها الوطنيّة جانباً هاماً مكملاً للجوانب التي تحدثنا عنها سابقاً وهو الجهد العظيم، الذي قام به أبناء هذا الوطن، وحكامه خاصة في سبيل رفعته، وإعلاء شأنه، وبناء حضارته، حتى غدا شامخاً، ومعظماً في عيون الأمم، تقول :

وَطَنِي المُبَجَّلُ والعَظِيمُ بِشَأْنِهِ ... وَطَنِي النَّبِيلُ وَمَوْطِنُ النُّبَلاءِ [45]

ثم تأخذ في تفصيل أعمال أولئك النبلاء، وما حققوه لوطنهم من الأمجاد؛ وفاء بحقه، وذلك من خلال ثنائية الوطن، وحكامه آل سعود، مع التركيز على عنصري الزمن الذي مَرّ به المكان (الوطن)، وعنصر التحول والانتقال الحضاري الراقي :

تاريخُـــهُ الوضَّـــاءُ فيـــهِ مَلاحـــمٌ للنّصْـــــرِ والتَّمكـــــينِ والعَلْيَـــــاءِ (46)

فذكر التاريخ إشارة زمنية، ترجع بك إلى نشأة ذلك الوطن وتكوينه، وما سُطِّر في سبيل ذلك من ملاحم بطولية استمرت سنين عديدة؛ إلى أن انجلت عن النصر والتمكين. ولا ريب أن كلمة ملاحم لها وقع خاص، ودلالة معبرة تختصر كثيراً من التفاصيل التي يثيرها الذهن. فتلك الملاحم مهدت للتحول والارتقاء الوطني، الذي أحدثه آل سعود، وإلى ذلك تشير بقولها :

حُكامُـــــهُ آلُ السُّـــــعُودِ، ومجـــــدُهُم نُـــــورٌ يُبَـــــدِّدُ قَسْـــــوَةَ الظَّلْمـــــاءِ

بالعَـــــدْلِ والشُّـــــوْرَى أَقَـــــامُوا دَوْلـــــةً وَقَضَـــــوا علـــــى الإفْسَـــــادِ والإغـــــوَاءِ

وبجـــــودِهِم ، وَبـــــذْلِهِم، وسَـــــخَائِهِمْ كالغَيْـــــثِ فـــــي السَّـــــرَّاءِ والضَّـــــرَّاءِ

هَـــــذي الجَزيـــــرةُ صَـــــيَّروها رَوْضَـــــةً فبَـــــدَا الرَّبيـــــعُ بهـــــذه الصـــــحراءِ

بـــــالعِلْمِ أَحْيوهـــــا وَبثُّـــــوا نُـــــورَهُ فـــــي الخَـــــافِقَيْنِ بِخيْـــــرةِ العُلَمـــــاءِ (47)

ويلحظ من خلال الأبيات، أن الشاعرة تسلك سبيل التضاد والمقابلة؛ لإبراز صورة الثورة الشاملة على الجهل والتخلف؛ ليقوم بناء الدولة الحديثة على الأسس والأخلاق الإسلامية ... فالنّور بقوته النافذة يبدد الظلام، ويكسر هيمنته، ويطرد أشباحه المخيفة؛ وبذلك يفتح السبيل أمام القيم النورانية، " العدل والشورى) ويدحر الظلم والفساد والإفساد، حتى غدت جزيرتهم جنة غناء، تزهو بالخصب والجمال الطبيعي. ولا يخفى ما يحمله هذا البيت من انزياح إلى معانٍ مجازية، توسّع أفق التحول، فشبه الجزيرة العربية أو (المملكة العربية السعودية) هي صحراء في أصل تكوينها الطبيعي، والصحراء اسم لكيان يرمز إلى الجفاف، والوحشة والعدمية لكنها تنقلب إلى روضة يختال ربيعها الطلق، بالجهد الذي يبذله حكامها. ولا سيما الجهد العلمي، الذي يبعث حالة من الإحياء والنماء في مجالات الحياة كلها، فكان الحرص على نشره وتشجيع مصادره من العلماء، ولعلنا نلحظ عنصراً فنياً آخر، زاد المشهد تكاملاً وانسجاماً ذلكم هو عنصر الألوان، التي لم تأتِ في الأبيات للزينة فحسب، بل أتت متناغمة مع أفعال آل سعود وإنجازاتهم، فلون النور الأبيض يدل على الصفاء والأمل والنصر

والسلام [48] ، كما يرمز اللون الأخضر (الروضة، الربيع) إلى الحياة والتجدد، والانبعاث الروحي [49] .

وممن تراه الشاعرة قد وضع بصمة الوفاء على صفحة الوطن، الأمير خالد الفيصل حين تولى إمارة (مكة المكرمة)، وتنعته بأمير الجود :

هَـــذا أميـــرُ الجُـــودِ سَـــاقَ خُيولَـــهُ نحـــــو الـــــدِّيار وأَشْـــــعَلَ القِنْـــــدِيلا

أَضْـــفَى علـــى وَجْـــهِ الحِجـــازِ بَشَاشـــةً دَاوَى الجِـــــرَاحَ وأَطْلَـــــقَ المَكْبُـــــولا[50]

توظف الشاعرة كلمة خيول – وهي من معجمها الشعري – لتأكيد صفة الجود الملازمة لهذا الأمير لأن للخيل قيمة خاصة عند العرب، وهي مرتبطة بالخير في تراثنا الإسلامي، حيث يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " [51] .

وكأن الشاعرة تطلق البشارة؛ بأن الخير سيعم الديار الحجازية، وسيبدأ عهد جديد، وتنطلق شرارة النهضة والإصلاح على بصيرة " وأشعل القنديلا " والعبارة تبث في الذهن معان كثيرة، فلفظ الاشتعال المضاف إلى القنديل رمز النور، فيه معنى القوة ، والسرعة التي تحرك السواكن، وتبعث فيها الحياة ؛ فيشرق وجه المنطقة، وتكسوه بشاشة الانتقال إلى العلم والحرية، ووأد الفقر، وكل الأمراض الصحيّة والاجتماعية، التي كانت تشكل كابوساً على الناس. ثم ترفع الشاعرة صوتها مشيدة بعزم ذلك الأمير، وحبه للعمل، ودأبه فيه، وإنجازاته العظيمة الماثلة في منطقة عسير، التي كان أميرها قبل مكة المكرمة .

ولذا فهي تأمل أن يستمر عطاؤه، وأن يحقق أحلام أهل الحجاز، فهم ينتظرون منه الكثير :

هَـــذَا الّـــذي بـــالعَزْمِ صَـــاغَ حَضَـــارةً مـــا كـــانَ يَوْمَـــاً خَـــامِلاً وكسُـــولا

أَطْلِـــق خُيـــولَ الحُلْـــمِ نحـــوَ شِـــعَابِهِ وارْقُـــبْ رُدُوداً للفِعَـــالِ عَجُـــولا

اسْـــأَلْ عَســـيراً عنـــهُ تنْبِـــيءُ أَنّـــه جَعَـــلَ الجِبـــالَ الشَّـــامخات حُقـــوْلا

حَتـــى غَـــدتْ أَبْهـــا البَهيَّـــةُ روْضَـــةً فيهـــا الجَمـــالُ مُؤَصْـــلاً تأصـــيلا

بـــك يـــا أَميـــرَ الجـــوْدِ لَبِســـتْ حُلَّـــةً حَتّـــى غَـــدتْ للســـائحينَ الأُوْلـــى [52]

إن أفعال هذا الأمير تترجم عنه، فليس الخبر كالعيان، فجبال عسير الصم الصِّلاب، التي كانت تشمخ في الفضاء، وتستعصي على التغيير، أعمل فيها فكرة ويده، حتى أعادها خضراء تكتسي بالجمال، وتتوالد فيها الخيرات، بما يشبه المعجزات .

أما مدينة أبها، حاضرة عسير، فقد حظيت بجهود مثمرة، تمخضت عن إنجازات مشهودة جعلت منها مهوى أفئدة السائحين والزائرين، يتمتعون بمناظرها ورونقها، ويقرؤون في صفحاتها سطوراً من الانتماء للوطن، والحرص على ازدهاره وسؤدده .

وتلح الشاعرة، وتؤكد دقة المنظر الجمالي، الذي أبرزه ذلك الأمير للمدينة البهية، حتى بدا وكأنه متأصل فيها منذ القدم وليس بحادث، وتلجأ في إظهار هذا المعنى إلى تقنية المجاورة في الصياغة الفنية " مؤصل تأصيلا " مما يضيف بعداً آخر وهو العمق، الذي بدوره يؤدي إلى كثافة دلالية [53] ، وإذا كانت تلك بصمات الأمير الواضحة في ترويض مناطق عسير الجبلية، وإخضاعها لرغبته الإصلاحية ؛ فما بالك بأرض الحجاز (مكة المكرمة) التي تنشط النفس لخدمتها، لما لها من المكانة والقدسية، لا شك أن عزيمة الأمير المتقدة، ستنطلق بمضاء إلى النهوض بها، ورفعة شأنها؛ ليظفر بالأجر من الله – سبحانه – ثم يحوز على ثقة الملك الذي انتدبه لذلك :

واليومَ هَاكَ لواءَ أَظْهرَ بُقْعَةٍ ... فَاغْرِسْ وِدَادَكَ زَهْرةً ونَخِيْلا

شَرَّفْتَ للبَلَدِ الأَمِينِ إمَارَةً ... فَاظْفَرْ بأَجْرٍ قَدْ أَتَاكَ جَزِيْلا

وافْخَر بعَهْدٍ من مَليكٍ حَازِمٍ ... ما اخْتَارَ إلاّ مُصْلِحاً مَسْؤُولا [54]

وتلفت الشاعرة إلى أن أفعال الأمير البارزة، وأمجاده التي سطرها في عظيم البناء، لها نصيب من اسمه " خالد " وكأنه قد خلد نفسه؛ لأن آثاره باقية ساطعة، والبناء يدل على عظيم شأن الباني :

يَا خَالِدَ الأَمْجادِ نَجْمُكَ سَاطِعٌ ... يَا فاعلاً لا يَقْبَلُ التأْجيلا [55]

ولعلنا نلحظ أن ثمة صيغاً صرفية تتكرر في هذه الأبيات، وهي صيغ أسماء الفاعلين مثل : (عاطر، شامخ، ساطع، حازم، مصلح، خالد، دائم ...) وقد جاءت متناغمة مع الجو العام للنص الذي يُحدِّث عن إنجازات الأمير ومآثره، وإعجاب الشاعرة بذلك، وتكرار البنى الصرفية " له دلالة على البعد النفسي للمبدع، ومحرك لنوازع السامع ومشاعره [56] .

وتختم الشاعرة قصيدتها بالثناء على الأمير، وتنعته بدائم الإنجاز، وتشهد بإبداعه وذوقه الرفيع، ولمساته الحانية التي طالت كل جزء من إمارته :

يَا دَائِمَ الإنْجاز إنَّكَ مُبْدعٌ ... في كلِّ شِبْرٍ ارْتَضَاكَ خَلِيلا [57]

ومن حق الوطن على أبنائه، إحياء جوانب التراث الوطني وتأصيلها، والمحافظة عليها؛ وذلك لربط ماضي الأجيال بحاضرها، ومن هنا جاء إطلاق المهرجان الوطني للتراث والثقافة، المعروف " بمهرجان الجنادرية " في المملكة العربية السعودية، وكانت الشاعرة قد شاركت ببعض قصائدها في دورة المهرجان الخامسة والعشرين، وفي ذلك تقول :

دَوَّنْتُ للمَجدِ والإنْجازِ مَلْحَمَةً ... شَدَا بها الطَّيْرُ في عُشٍّ وأَغْصَانِ

نَيْفٌ وعِشْرونَ عاماً بِتُّ أَحْسَبُها ... عِقْداً من النّورِ يَعْلو جِيْدَ أَوْطاني

في مَهْرَجَانٍ تَنامَى عِطْرُ سِيْرَتِهِ ... وباتَ يَشْدو لَهُ القاصِي مع الدَّاني

فيه التّراثُ كأُمٍ من مَحَبَّتِهَا ... تَقولُ للجِيْلِ أَهلاً بين أَحْضَانِي [58]

ترى الشاعرة أنه لزام عليها، ووفاءً لبناة مجد الوطن، أن تصدح بأعذب القصائد وأجملها لتسطّر، وتخلّد الأعمال والإنجازات العظيمة. فهي تؤرخ لانطلاق مهرجان النور – كما تسميه – لأنّه أزال الحواجز الوهمية الواهية التي تعيق بناء الإبداع في الأدب والفن، واتصالهما بالموروث الشعبي، فالرحم ليست مقطوعة بين الأصالة والمعاصرة؛ بل إن قيم التراث التاريخية والأدبية، تشكل حافزاً للمبدعين، تدفعهم نحو توظيفها في أعمالهم الفنية بطريقة أو بأخرى.

ثم تُعرّج الشاعرة بالثناء العاطر على أبناء الوطن، وسادته الذين كان لهم الفضل في تأسيس هذا المهرجان، ورعايته المستمرة عبر السنين حتى غدا حدثاً عالمياً يقصده القاصي والداني، وتبدأ بفضل خادم الحرمين، الراعي الأول، والذي تقتضي طقوس المهرجان، أن يتم الافتتاح برعايته وحضوره فعاليات معينة في كل عام، ثم تثنّي بالأمراء، وجهودهم الخيرة المثمرة :

بِمهْرجانِ تُراثٍ، الرّوحُ تَسْكُنُه ... وَيَصْطَفِيْهِ فُؤادُ القائِدِ البَانِي

هَذا العَظِيْمُ الذي بالحُبِّ أَسَّسَهُ ... وبالمكارِمِ أَصْفَى عِطْرَهُ الحَانِي

بُورِكْتَ يا خَادِمَ الحَرمينِ يا أَمَلاً ... وبُورِكْتْ في العَطَاءِ أَمْجادُ سُلْطَانِ

وَليُّ عَهْدٍ دُروبُ الخَيْرِ مَسْلَكُهُ ... وذِكْرُهُ عَاطِرٌ في كلِّ مَيْدانِ

ومُتْعِبٌ سَاقَ للأَضْيافِ مَائِدةً ... مِنَ التُّراثِ بلا زَيْفٍ وَنُقْصَانِ [59]

هذا العبق التراثي هدية هؤلاء الحكام لوطنهم، أشعل روح التنافس بين مدن المملكة فراحت كل مدينة تقدم ما حوته خزائنها من أدب، وعادات اجتماعية متأصلة، وأدوات قديمة ترتبط بحكايات تاريخية ... إلى غير ذلك .

وتنقل الشاعرة ذلك المشهد الذي عايشته بقولها :

فيه اسْتَقَرّتْ خِيَامُ الأَمْسِ في أَلَقٍ	تَضُمُّ نَجْداً مع سَكَاكَا ونَجْرَانِ
ودارَ حاتِمَ [60] وَالأَفْلاَجَ والخُبَرَ	وَدَوْحَةً من شَذَا أَبْهَا وجَازَانِ
كلٌّ يَجودُ بِسَهْمٍ من كِنانَتِهِ	سَهْمٌ من الحُبِّ عن أَمْجَادِ أَزْمَانِ [61]

خاتمة البحث

من يتتبع ديوان الشاعرة السعودية نجاة الماجد يلحظ أن ثمة نزعات متنوعة تحكمها وتنطلق منها لبناء شخصيتها وكيانها، فمنها الديني، والوطني، والرومانسي، وغير ذلك من توجهات، ولعلّ رسوخ النزعة الوطنيّة في ديوانها الشعري، الموسوم بـ (الجرح إذا تنفّس) إنما ينبئ عن تجربة حياتية صادقة عاشتها الشاعرة نجاة الماجد، بكل معطياتها وتفاصيلها وتداعياتها، واستمتعت بمناظر الوطن الخلاّبة؛ حيث نشأت على هذه الأرض الطيبة المباركة وترعرت على ترابه ورمله وسهله وجبله، وامتزجت هذه المشاهد بمشاعرها وأحاسيسها، فأسقطت عليها رؤاها النفسية وتجاربها اليومية ، فتماهت معها وتداخلت وأضحت جزءاً من كيانها وهويتها وشخصيتها، كما لا يغيب عن الشاعرة نجاة ذلك الدور المميّز الذي أسهم فيه رموز المملكة العربية السعودية، بدءاً من خادم الحرمين الشريفين، ومروراً بالأمراء السعوديين الذين أسهموا إلى حدٍّ كبير في الارتقاء بالمملكة العربية السعودية إلى مدارج الرقيّ والتحضر، فازدهرت حياة الإنسان وتطورت، على كافة الأصعدة السياسية والعلمية والاجتماعية والصحية والعمرانية. وصاغت الشاعرة نجاة الماجد هذه الأفكار والمضامين بنظم بديع من القلائد الجياد من القصائد المسبوكة بصورة فنية بديعة استوحتها من الموروث الديني والتاريخي للمملكة فكانت بحق مشاهد ولوحات فنية تبهر القارئ وتنتزع منه الإعجاب .

وفي الختام تأمل الدراسة أن تفتح الآفاق للباحثين والمهتمين بدراسة شعر الشاعرة نجاة الماجد واستخراج المزيد من كنوزه الثريّة بالأفكار والصور الشعرية .

هوامش البحث

1- جبرا إبراهيم جبرا، الفضاء الروائي، ط بغداد، 2001م ، ص174 .

2- الماجد، نجاة، ديوان الجرح إذا تنفس، ط النادي الأدبي بالجوف – السعودية، 2010م، ص42

3- إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان، مجلة فصول، مجلد 9، العدد الأول 1990، ص49 .

4- الماجد، نجاة، ديوان الجرح إذا تنفس، ص42 .

5- المصدر السابق، ص43 .

6- المصدر السابق، ص42 .

7- المغيض، تركي، جماليات المكان في شعر عرار، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد 4، العدد 2، 1998، ص190 .

8- الماجد، نجاة، المصدر السابق، ص44 .

9- شوقي، أحمد، ديوان الشوقيات، ج1، دار العودة، بيروت، 1988م، ص155 .

10- ربابعة، موسى ، قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي، ط دار الكندي ، الأردن، 2001م، ص25 .

11- فضل، صلاح، علم الأسلوبية، ط دار الشروق، القاهرة 1988م ، ص79 .

12- الماجد، نجاة، المصدر السابق، ص44 .

13- المصدر السابق، ص44-45 .

14- انظر المصدر السابق، ص37، ص74، ص86، ص96 .

15- المصدر السابق، ص44 .

16- المصدر السابق، ص45 .

17- المصدر السابق، ص81 .

18- المصدر السابق، ص82 .

19- المصدر السابق، ص84 .

20- المصدر السابق، ص49 .

21- المصدر السابق، ص49 .

22- المصدر السابق، ص49 .

23- المصدر السابق، ص81 .

24- المصدر السابق، ص81 .

25- المصدر السابق، ص82 .

26- المصدر السابق، ص83 .

27- المصدر السابق، ص82 .

28- الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، ط بيروت 2010م، ص266 .

29- الماجد، نجاة، الجرح إذا تنفس، ص86 .

30- المصدر السابق، ص86 .

31- المصدر السابق، ص87 .

32- المصدر السابق، ص87 .

33- المصدر السابق، ص87 .

34- المصدر السابق، ص87 .

35- المصدر السابق، ص88 .

36- سورة النور، الآية 35 .

37- سورة النور، الآية 35 .

38- الماجد، نجاة، الجرح إذا تنفس ، ص89 .

39- المصدر السابق، ص89 .

40- سورة إبراهيم، الآية 37 .

41- الماجد، نجاة، الجرح إذا تنفس، ص83 .

42- المصدر السابق، ص84 .

43- المصدر السابق، ص85 .

44- المصدر السابق، ص70 .

45- المصدر السابق، ص84 .

46- المصدر السابق، ص84 .

47- المصدر السابق، ص85 .

48- همام، محمد يوسف، اللون ط بييروت، 1980، ص7 .

49- عبود، فرج، علم عناصر الفن، ط إيطاليا 1982، ج1، ص137 .

50- الماجد، نجاة، الجرح إذا تنفس، ص85 .

51- العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط المطبعة السلفية، القاهرة، 1960م، ج6، ص54 .

52- الماجد، نجاة، مصدر سابق، ص75 .

53- عبد المطلب، محمد، التكرار النمطي في قصيدة المدح عند حافظ، مجلة فصول، المجلد 3، العدد 3، ص51 .

54- الماجد، نجاة، مصدر سابق، ص75 .

55- المصدر السابق، ص76 .

56- ربابعة، موسى، الشعر الجاهلي، مقاربات نصية، دار الكندي، الأردن، 2002، ص134 .

57- المصدر السابق، ص76 .

58- المصدر السابق، ص95 .

59- المصدر السابق، ص96 .

60- دار حاتم : المقصود بها مدينة حائل في شمال المملكة العربية السعودية، وهي مساكن قبيلة طيء في الجاهلية والإسلام، ومنهم حاتم الطائي، الذي تضرب بكرمه الأمثال. انظر : مقدمة ديوانه، تحقيق حنّا نصر، ط بيروت 1994م .

61- الماجد، نجاة، مصدر سابق، ص97 .

المصادر والمراجع

·القرآن الكريم .

- إبراهيم نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، مجلد 9 ، العددان الأول والثاني1990 .
- جبرا إبراهيم جبرا، الفضاء الروائي، ط بغداد، 2001م .
- دي سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف، ط بغداد 1985م.
- ربابعة، موسى، الشعر الجاهلي، مقاربات نصية، ط دار الكندي، الأردن، 2002م .
- ربابعة، موسى، قراءات أسلوبية في الشعر الجاهلي ، ط دار الكندي، الأردن، 2001م.
- شوقي، أحمد، ديوان الشوقيات، ط دار العودة، بيروت، 1988م .
- عبد المطلب، محمد ، التكرار النمطي في قصيدة المدح عند حافظ إبراهيم، دراسة أسلوبية، مجلة فصول، المجلد 3، العدد 3 .
- فرج، عبود، علم عناصر الفن، ط ميلانو، إيطاليا، 1982م .
- فضل، صلاح، علم الأسلوبية ، ط دار الشروق، القاهرة، 1998م .
- الكبيسي، عمران خضر، لغة الشعر العراقي المعاصر، ط الكويت، 1982م .
- الماجد، نجاة، ديوان الجرح إذا تنفس، ط النادي الأدبي بالجوف – السعودية، 2010م.
- المغيض، تركي،جماليات المكان في شعر عرار، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد 4 ، العدد 2، 1998م .

- الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، ط5، بيروت 2010م .
- النّصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، دراسة نقدية، ط بغداد، 1988م .
- همام، محمد يوسف، اللون، ط بيروت، 1980م .